

تفسير ابن كثير

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن بكوا حتى أخلصوا لحاهم وهذا القول فيه نظر لأن هذه الآية مدنية وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة وقال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسمعوا كلامه ويروا صفاته فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه قال السدي : فهاجر النجاشي فمات بالطريق وهذا من أفراد السدي فإن النجاشي مات وهو ملك الحبشة وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم يوم مات وأخبر به أصحابه وأخبر أنه مات بأرض الحبشة ثم اختلف في عدة هذا الوفد ف قيل : اثنا عشر : سبعة قساوسة وخمسة رهابين وقيل : بالعكس وقيل : خمسون وقيل : بضع وستون وقيل : سبعون رجلا فأعلم وقال عطاء بن أبي رباح : هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين وقال قتادة : هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها .

فقوله تعالى : { لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا } ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ولهذا قتلوا كثيرا من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة وسموه وسحروه وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة قال الحافظ أبو بكر بن مردويه عند تفسير هذه الآية : حدثنا أحمد بن محمد بن السري حدثنا محمد بن علي بن حبيب الرقي حدثنا علي بن سعيد العلق حدثنا أبو النضر عن الأشجعي عن سفيان عن يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [ما خلا يهودي بمسلم قط إلا هم بقتله] ثم رواه عن محمد بن أحمد بن إسحاق العسكري حدثنا أحمد بن أيوب الأهوازي حدثنا فرج بن عبيد حدثنا عباد بن العوام عن يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [ما خلا يهودي بمسلم إلا حدث نفسه بقتله] وهذا حديث غريب جدا .

وقوله تعالى : { ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى } أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى {

وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية { وفي كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر وليس القتال مشروعاً في ملتهم ولهذا قال تعالى : { ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون } أي يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلمائهم واحدهم قسيس وقس أيضاً وقد يجمع على قسوس والرهبان جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة وهي الخوف كراكب وركبان وفرسان قال ابن جرير : وقد يكون الرهبان واحداً وجمعه رهابين مثل قربان وقرابين وجردان وجرادين وقد يجمع على رهبانة ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحداً قول الشاعر :

لو عاينت رهبان دير في القلل لانحدر الرهبان يمشي ونزل .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا بشر بن آدم حدثنا نصير بن أبي الأشعث حدثني الصلت الدهان عن جاثمة بن رئاب قال : سألت سلمان عن قول الله تعالى { ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا } فقال : دع القسيسين في البيع والخرب أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم [ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا] وكذا رواه ابن مردويه من طريق يحيى بن عبد الحميد الخاني عن نصير بن زياد الطائي عن صلت الدهان عن جاثمة بن رئاب عن سلمان به قال ابن أبي حاتم : ذكره أبي حدثنا يحيى بن عبد الحميد الخاني حدثنا نصير بن زياد الطائي حدثنا صلت الدهان عن جاثمة بن رئاب قال : سمعت سلمان وسئل عن قوله { ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا } فقال هم الرهبان الذين هم في الصوامع والخرب فدعوهم فيها قال سلمان : وقرأت على النبي صلى الله عليه وسلم { ذلك بأن منهم قسيسين } فأقرأني [ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا] فقوله { ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون } تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف فقال { وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق } أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم { يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين } أي مع من يشهد بصفة هذا ويؤمن به .

وقد روى النسائي عن عمرو بن علي الفلاس عن عمر بن علي بن مقدم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه { وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين } وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس في قوله { فاكتبنا مع الشاهدين } أي مع محمد صلى الله عليه وسلم وأمه هم الشاهدون يشهدون لنبيهم صلى الله عليه وسلم أنه قد بلغ ولرسل أنهم قد بلغوا ثم قال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وقال الطبراني حدثنا أبو شبيل عبد الله بن عبد الرحمن بن واقد حدثنا أبي حدثنا العباس

بن الفضل عن عبد الجبار بن نافع الضبي عن قتادة وجعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله تعالى : { وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع } قال : إنهم كانوا كرايين يعني فلاحين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم] فقالوا : لن ننتقل عن ديننا فأنزل الله ذلك من قولهم { وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين } وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى : { وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم خاشعين } الآية وهم الذين قال الله فيهم { الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين } إلى قوله { لا نبتغي الجاهلين } ولهذا قال تعالى ههنا : { فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار } أي فجزاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق { جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها } أي ما كثرين فيها أبدا لا يحولون ولا يزولون { وذلك جزاء المحسنين } أي في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال { والذين كفروا وكذبوا بآياتنا } أي جحدوا بها وخالفوها { أولئك أصحاب الجحيم } أي هم أهلها والداخلون فيها